المنحوتات الجدارية
من وسائل الأعلام عند الآشوريين

د. حسين ظاهر حمود
كلية الآداب – الآثار

مقدمة

إن للأعلام أهمية كبيرة في تاريخ البلدان قديماً وحديثاً، لما لوسائله من دور فعّال ومؤثر، فهي من جانب تمثل ضرباً من ضروب فن السياسة والحرب بما تحمله في طياتها من بذور خطر الصراع المستمر وبكافة أشكاله المعروفة ومن الجانب الآخر صورة للحضارة وعنواناً للمستوى التنظيمي التحضري الذي بلغته الدول والأمم من سبل دعاية وقائية (أو وسائل أعلام دفاعية) كفوءة في سبيل تأمين مصالحها وتلاحمها الوطني وحماية أمنها واستقرارها ومواجهة الأخطار المحدقة بها.

فمن الثابت أن للأعلام أثر في تكوين الرأي وتبعية الأفراد له وبنتيجة هذا التأثير يصبح أولئك الأفراد مسيّرين بالمعلومات التي يستقبلونها باعتبارها منهجاً موجهاً[1]، ويتزايد هذا التأثير كلما كانت المهارات الأعلامية لدى المضطلعين أو الأفراد القائمين على إدارتها بشكل كفوء من خلال خبراتهم العملية وقدراتهم الفريدة في امتلاك خصائص ومميزات الخيال الخصب الخلاق وبعد النظر، والألهام والقدرة على بلوغ الغايات وتحقيق الأهداف بنجاح من خلال اختيار أدّق وأنسب الوسائل الأعلامية.

ولما كانت بلاد الرافدين سبّاقة في إقامة أقدم مراكز الحضارة التي عرفتها البشرية في الأهتداء للزراعة والتدجين والكتابة وغيرها من مظاهر نشاط الأنسان في مضمار بناء الحضارة[2]، فقد شهدت فيها مسألة الأعلام كغيرها من جوانب الحياة تطوراً مهماً واضحت حيوية في تاريخه ومنذ أقدم العصور.

مصادر الدراسة

هذه الدراسة محاولة لألقاء الضوء على موضوع الأعلام الآشوري حصراً لما بلغه هذا الجانب من تطور كبير في تاريخ الآشوريين.

ولمعرفة تاريخ الأعلام الآشوري يمكن الأفادة من آثار المخلفات المادية ودراستها لأعطاء صورة مفصلة عنها والتي تشمل إلى جانب النصوص المسمارية[3]، والأبنية العامة... مختلف المشاهد الحربية المنحوتة على جدران القصور والنصب في اطلال المدن الآشورية

القديمة في نينوىٰ وخرسباد وآشور والنمرود[٤] ، والتي يمكن من خلالها أن نتفحص بصفة تحليلية جانباً من جوانب أساليب الأعلام التي روّجها الآشوريون وما كان يجري خلف واجهة حروبهم ومناوراتهم السياسية الجارية آنذاك من خلال دراسة واستخلاص عدد من المواضيع التي تضمنتها الألواح الجدارية .

الأعلام السياسي الآشوري

لقد كانت السياسة الآشورية تستهدف امتلاك قوة أعلامية كفيلة بتوجيه أفرادها وأتباعها وضمّهم إلى جانبها من أجل تلاحمها الوطني وخدمة مصالحها وكان رائدها في ذلك حماية أمنها واستقرارها الداخلي والحفاظ على أراضيها ومسالكها التجارية التي تمثل عصب حياتها الأقتصادية ضد أطماع القوىٰ المجاورة[٥] .

ولغرض تحقيق هذه السياسة فقد أتبع الآشوريون وسائل عديدة ، كانت الدعاية المصورة إحدىٰ تلك الوسائل المهمة التي أعتمدوا عليها في هذا المضمار.

كانت المنحوتات الجدارية في القصور الآشورية والمنحوتات الجبلية بمضامينها ودقّة تنفيذها من أهم وسائلها ، ويمكن تشبيه تلك المنحوتات بالوثائق والمجلات المصوّرة الصادرة حالياً ، إذ كانت بمثابة المرآة التي تعكس العظمة الآشورية وتبرزها من خلال مشاهد مصورة متعاقبة وإلى الأسفل منها كتابات مسمارية شملت سرداً لوقائع الحياة المتحضرة التي كان يعيشها الآشوريون فضلاً عن تفاصيل أنباء الأنتصارات التي كانوا يحققونها .

هذا ودون شك أنّ للقوة أهمية كبيرة في تحقيق أهداف ومصالح مختلف الدول القائمة والجماعات في كل زمان ومكان ، وأحياناً فإن تحقيق أهداف وغايات الدول يتم من خلال الفعل السياسي الدعائي وذلك عن طريق تصوير مظاهر تلك القوة المنظورة[٦] .

حرص الآشوريون ومنذ فترات مبكرة من تاريخهم إلى بناء قوة عظيمة لهم في منطقة الشرق الأدنى القديم لمواجهة الأخطار الجسيمة التي كانت تحدق بهم من كل صوب والتي كادت تقضي عليهم لولا قوة قطعاتهم المسلّحة وحسن تدريبها وخبرتها الطويلة المكتسبة في القتال وحنكة قادتهم وأقتدارهم وحسن وضع الخطط السياسية والعسكرية ومعرفتهم الدقيقة بالظروف المحيطة بالأعداء تعرّفاً دقيقاً من خلال جهاز الأستخبارات والتعبئة والأساليب القتالية الملائمة للمنطقة المتوقع وقوع المعركة فيها ، فضلاً عن سرعة أيصالهم المعلومات من وإلى القيادة ....[٧]

فقد كانت بلاد آشور أقليماً مفتوحاً أمام الأقوام الأجنبية ولا سيما الجبلية منها وتتعرض لغزواتها وهجماتها عبر العصور المتعاقبة ، والمتتبع للتاريخ الآشوري ولا سيما المتأخر منه يلحظ بسهولة سلسلة الحملات العسكرية التي كان يخوضها ويوجهها كل ملك آشوري إلى الجبهات المختلفة لمواجهة الغزوات والتمردات والفتن والتهديدات ضد الدولة الآشورية[٨] .

وأمام هذه التحديات كان لابدّ للآشوريين من مقاومتها وأجهاضها بمختلف الوسائل والسبل ، فكان أن أولى ملوكهم جلّ أهتمامهم بالجانب الأعلامي ليؤدي دوره المهم في تنفيذ مخططات سياسة الدولة الآشورية وتطلعاتها ، حتىٰ غدا هذا الجهاز مصدر فخر أثير للملوك الآشوريين وقوة أعلامية مؤثرة كبيرة في منطقة الشرق الأدنىٰ القديم بأسرها .

لذا فقد أنهمك النحاتون بتنفيذ الأوامر الملكية بتصوير وقائع المعارك ومظاهر القوة الآشورية في جوانبها المختلفة وفي أدق التفاصيل على جدران القصور وواجهات الجبال ، فترينا تلك المشاهد أستعراض قوة القطعات العسكرية الآشورية وتقدم حملاتها في مختلف البيئات (السهلية – الجبلية – المائية) وهي تزحف وتقاتل وتدك بصنوفها المختلفة أسوار المدن وتحاصرها ، فضلاً عن مناظر تحقيق الأنتصارات وتصوير الهزائم للأعداء ، والتقدم الظافر للملك في عربته ومواكب طويلة من مجاميع أسرىٰ الحرب ، ومناظر معاقبة المتآمرين والمندحرين ، كما أشتملت مشاهد أخرىٰ للملك مصوراً وهو يقوم بفعاليات مختلفة في أفاريز منسّقة ووفق تصاميم هندسية رائعة كأستعراض الجند والصيد وأستلام الجزية وأستقبال الرعايا وقيادة الجيوش في الحرب .....[٩] .

كما أنّ تحت رموز الآلهة في هذه المنحوتات كان لتأكيد قدسية الحملات الآشورية وعدالتها (مثل قرص الشمس ، القرص المجنّح في السماء) والأعتقاد الراسخ بأن الحرب أنّما هي تنفيذ لرغبات الآلهة وتأمين لرضاها وخطب ودها ، يضاف إلى ذلك أن الملكية حسب المفهوم السائد آنذاك كانت تندمج في الدولة الآشورية بالدين مثلما كان عليه الأمر في العصور السومرية والبابلية السابقة[١٠] .

ولذلك فإن المشاهد لم تكن في الواقع غير أحد أنماط الدعاية والأعلام السياسي ، أستهدفت أن تقدم في شكلها القصصي حروباً مصورة حقيقية أبرزت فيها عظمة القوة الآشورية وعدم جدوىٰ مقاومة الأعداء لها ، كما أضفت على أفئدة الزّوار إليها ولا سيما الرسل والمبعوثين الأجانب منهم عند زيارتهم للقصور الآشورية مشاعر الرهبة والرعب المليئة بالآلام نتيجة مأساة الحرب فضلاً عن أهمية تلك المشاهد بالنسبة للآشوريين ، إذ أنها كانت تمثل أحد مظاهر التباهي والأفتخار والطموح بأمتلاك القوّة الرادعة دائماً الّتي تؤمن حماية مصالحهم ضمن أطار موضوعي واعٍ ومسؤول[١١] .

وفي الواقع نتوخىٰ من هذه الدراسة من جانب آخر تصحيح الأنطباع الخاطىء الّذي تولد لدىٰ بعض الباحثين الأجانب الّذين أطلعوا على مشاهد الحرب هذه ووصفوا الآشوريين في ضوئها أنهم كانوا شعباً متعطشاً للدماء يحاول أخضاع الأقوام الأخرى تحت سيطرته بالأساليب القسرية ، إلاّ أن تلك الأساليب التي تتّسم بالشّدة والقسوة لم تكن حسب المقاييس القديمة قسرية بل كانت معروفة وسائدة آنذاك وكان الآشوريون شعباً عظيماً متحضراً وأكثر الشعوب تحضراً في عصره[١٢] .

المنحوتات الجدارية

أستخدم النّحات الآشوري تقنيات أساسية في عملية نقل الألواح الحجرية وتهذيبها قبل وضعها في قاعات وأروقة القصور ومن ثم وضعها على الجدران ، إذ نفذ مواضيعه على تلك الألواح بتخطيطات أولية مستوحاة من الحوادث الحقيقية مباشرة من نتيجة ملاحظاته لها سواء في أرض المعركة أو في بلاد آشور ، وقد أبدع في نحت ألواحه حتىٰ بلغ القمّة في التعبير بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الفنون العالمية من حيث أختيار أنسب المواقف والأفكار ذات التأثير المباشر على المشاهدين[١٣] .

مواضيع الألواح الجدارية

ضمّت القصور الآشورية أعداداً كبيرة من النتاجات النحتية ، وأن الجداريات المنحوتة بالنحت البارز من هذا العصر قد تشعبت مواضيعها نتيجة لزخم الحياة الأجتماعية والعسكرية . وفيما يأتي تحليل لمضامين بعض من تلك الألواح :

أ- المواضيع الحربية : شملت الألواح الآشورية على كثير من المواضيع الحربية التي دارت وقائعها في مختلف المناطق ، ومن المنحوتات المهمة بهذا الخصوص موضوع الحرب ضد العيلاميين في مدينة (خمانو)[١٤] .

وكذلك وقائع المعركة الآشورية العيلامية في حدود عام ٦٥٣ ق.م على نهر آلاي (الكرخة حالياً) بمنطقة تل توبا وقد حقق فيها الجيش الآشوري أنتصاراً حاسماً عليهم وأسروا ملكهم تيومان وقطعوا رأسه[١٥] .

يعتبر هذا اللوح من الألواح الفريدة ومن خلال دراسته يتبين أن النّحات كان على معرفة لخصائص المنطقة الطوبوغرافية بشكل دقيق وعلى معرفة بالعناصر الفنّية الأساسية ، ويتضح

ذلك من خلال التوافق النابض بالأصالة والحيوية والحماس والتناسق بين جميع أجزاء الموضوع وفي توزيع الكتل والتشريح والحركة وأستخدامات توظيفها في خدمة الدعاية الآشورية.

وفي الواقع أن هذه اللوحة عبارة عن بانوراما عظيمة ناطقة مؤثرة بحركاتها وأنفعالاتها الرهيبة، فقد تخيّل النّحات المعركة وكأنّها تدور فعلاً أمامه بضجيجها وما فيها من أصوات تعبّر عن الفزع وصهيل الخيول وأبراز أسلحة الجيش الآشوري المعهودة آنذاك، إذ تميّزت عن كل الأعمال الحربية الأخرى...، فهي تحمل في طيّاتها كثيراً من المعاني السياسية والحربية، ولا سيما في اسلوب سرد وتسلسل أحداث هذه المعركة والتي لها مغزىً أعلامي عميق ومؤثر على نفسية المشاهد، فضلاً عن التعبير الدقيق لحركات الأنسان والحيوان الذي نتج عن فنان ذي إدراك فنّي جيد، وكان لمشاهداته وقائع الحرب الفعلية دوراً متميزاً في نقل وأنجاز التعبير الحّي لها بكل مجرياتها منذ التحرك الأول إلى أنتصار الآشوريين والقضاء على تيومان ملك عيلام، كما نتلمس من خلال هذه اللوحة وفي لوحات أخرىٰ متعددة الطاقة الأبتكارية في عمليات الأتقان الفنيّة في نقل مفاهيم الروح العسكرية الآشورية وتطبيقها لفنون الحرب على تلك الألواح[١٦].

وقد شمل اللوح المذكور أيضاً في أحد جوانبه توثيقاً لمجريات الأحداث ونتائجها فقد كتب عليه: «تيومان ملك عيلام. الّذي جرح في معركة ضارية وتماريتو، ابنه الأكبر يفديه وهو ماسكاً بيده لينقذ حياتها المهدّدة ويختفي في أيكة، وبمساعدة آشور وعشتار قتلا وقطع رأسيهما[١٧].

كما صوّر لنا النّحات مشهد القضاء على الملك تيومان من قبل أحد الجنود الآشوريين، والآخر يقوم بحركة عنيفة ليسدّد ضربة على أحد أمرائه.... فقد أعطى رموز النحت من حسن الأداء ودقة التعبير حالة واقعية ومأساوية في حركات أجسادهم التي يظهر عليها الأرباك والعجز. وبذلك يتضح من هذا اللوح الأمكانية الفذّة في توظيف الحقائق سيما تلك الأحداث وسوقها في خدمة مضامين الدعاية الآشورية[١٨]، إذ كان الفنان يسعىٰ دائماً إلى إيجاد علاقة صميمية وحالة من التوافق بين أعماله وما تتطلبه سياسة بلاده والظروف التي تعيشها، فكانت نتاجاته هادفة ومباشرة وموضوعية، إذ نفذّ جميع أعماله لتفسير وتحليل كل حالة من الحالات التي أستوحاها من واقعه بشكل صادق وأمين.

ومن التاجات المهمة في هذا الخصوص أيضاً النصب العائد للملك شلمنصّر الثالث وأمامه أحد الملوك وهو يقدم الطاعة وقد تدلىٰ رأسه إلى الأرض ، وقد سجل أنتصار الملك على النصب بكتابة مسمارية[٢٨] .

وبذلك يتوفر لنا من خلال هذه المنحوتات الجدارية التي تغطي الباحات وغرف القصور الملكية الآشورية وأروقتها تاريخ مصور ومفصّل يحوي نصوصاً توضيحية عن حملات الملوك العسكرية ، فلم يسبق لأي شعب في التاريخ من قبل أن أحتفل بأبهته وقوته بمثل هذه الأبهة الأعلامية المؤثرة[١٩] ، فهي بذلك تكشف أهمية تأثير الأعلام النفسي على زوّار القصور الآشورية والهامهم الرهبة المشوبة بالأحترام ومن ساكنه الجليل ملك آشور وماكنته الحربية العظيمة آنذاك وعدم جدوىٰ مقاومتها .

المصادر

(١) أسعيد، محمد فايز عبد: قضايا علم السياسة العام، بيروت، ١٩٨٣، ص١١١.

(٢) سليمان، عامر: العراق في التاريخ القديم (موجز التاريخ الحضاري)، موصل، ١٩٩٣، ص١٣.

(٣) – Luckenbill, D.D: Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1926,1, SS, pp.240-806.

– Pritchard, J.B: Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton, N.J, 1950, 2nd, ed., 1955, pp.276-290

(٤) – Unstead, R.J and Forman, W.: the Assyrians, London, 1980 pp.4-40

(٥) ساكز، هاري: عظمة بابل (لندن ١٩٦٢)، ترجمة عامر سليمان، موصل، ١٩٧٩، ص١٤٥.

(٦) أسعيد، المصدر السابق، ص١٠.

(٧) رو، جورج: العراق القديم (لندن ١٩٦٣) ترجمة حسين علوان، بغداد، ١٩٨٦، ص ص ٤٦٢– ٤٦٦.

(٨) ساكز: المصدر السابق، ص ص ١٣٧– ١٦٦.

– Postgate, Nicholas: the First Empires, Oxford, 1977, pp.117-131.

(٩) – Unstead, Op. Cit,pp.4-40.

(١٠) رو، المصدر السابق، ص٤٦٨.

(١١) المصدر نفسه، ص٤٦٨.

(١٢) سليمان: المصدر السابق، ص١٠٧.

(١٣) أحمد، نزار عبداللطيف: النحت البارز في عهد الملك آشور بانيبال، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٨٧، ص ذ.

(١٤) – Stromenger, Eva: The Art of Mesopotamia, 1964, p.450.

(١٥) – Reed, G: Archaelogische mitteilungen aus Iran, Neue folge band, 1970, p.90.

(١٦) أحمد: المصدر السابق، ص٦٤– ٦٦.

(١٧) – Stromenger: OP. Cit, p.452.

(١٨) أحمد: المصدر السابق، ص٦٦.

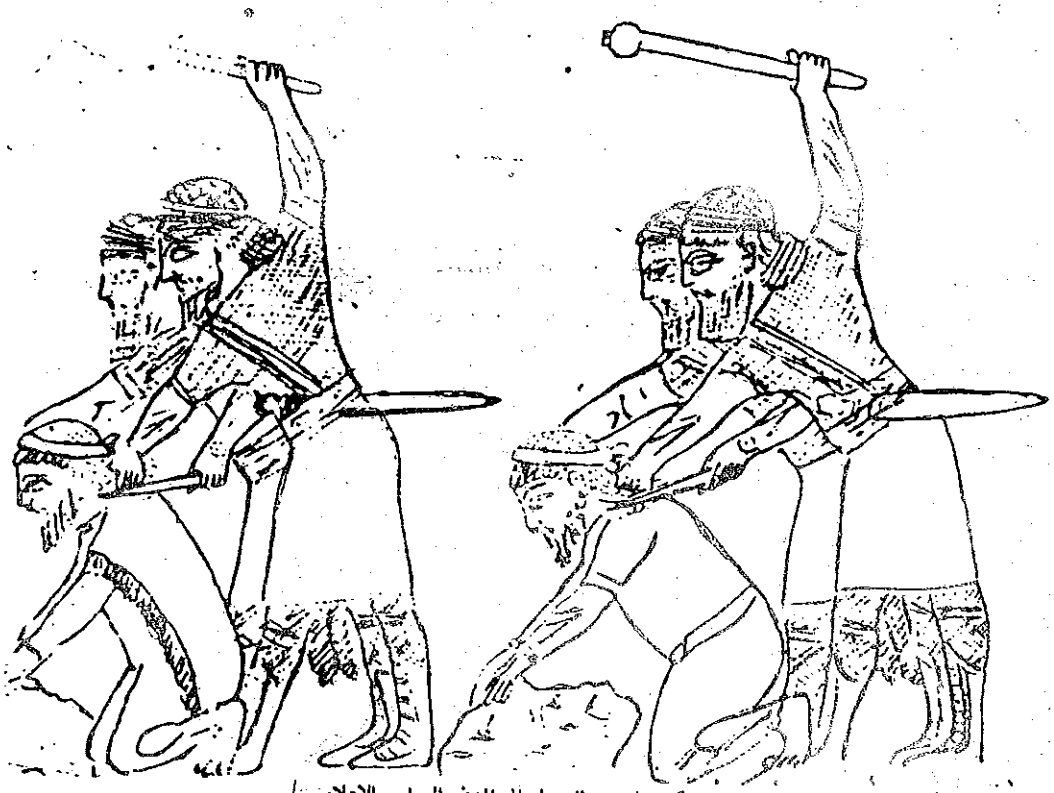

التكرار المقصود للوصول الى الهدف السياسي الإعلامي

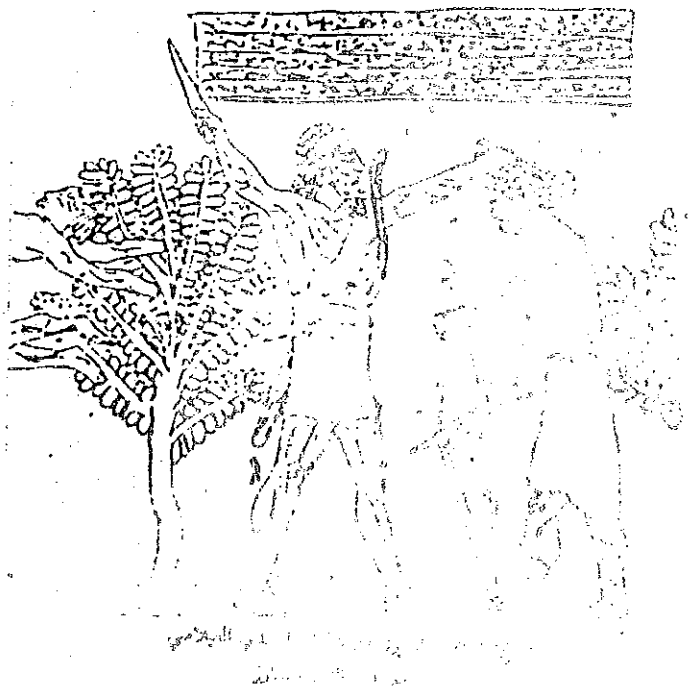

مشهد لمعركة حربية بين الآشوريين وحلفائهم من الشعوب الأخرى (القصر الشمالي الغربي بنمرود، العهد الآشوري الحديث)

(أ) المخلوق المركب الذي يمتاز بدقة التشريح وانسيابية الحركة من عهد آشور بانيبال

(ب) المخلوق المركب الحارس في احدى بوابات قصر آشور ناصربال الثاني (نمرود)

عن : احمد : النحت البارز

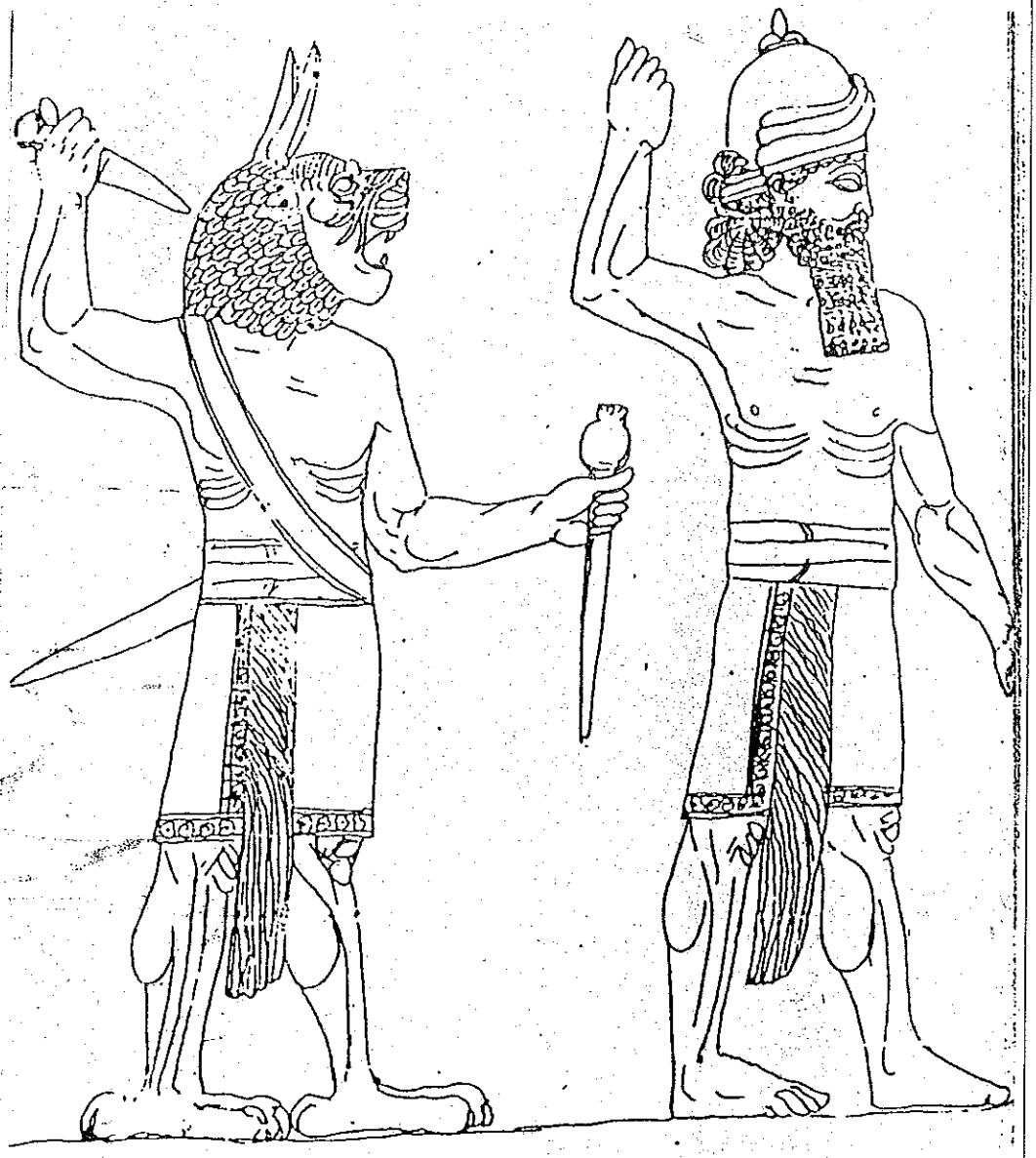

ـة الحركة والتشريع التي يتصف بها هذا اللوح المعبر عن احدى المراسيم الدينية في احد ممرات قصر سنحاريب تمثل الحداثة في التكوين

عن : احمد : النحت البارز

التطابق والتماثل في عملية تبريك الملك حول الشجرة المقدسة من قصر آشور ناصربال الثاني (نمرود)
(موضوع ديني) عن احمد : النحت البارز

قتال الملك آشور بانيبال بالسيف راجلاً مع الاسود
عن : احمد : النحت البارز

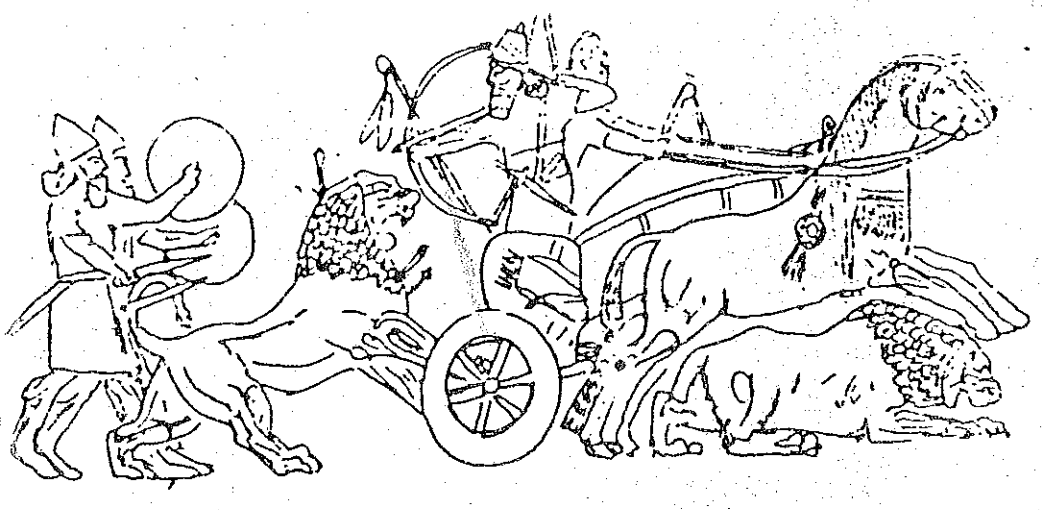

(أ)

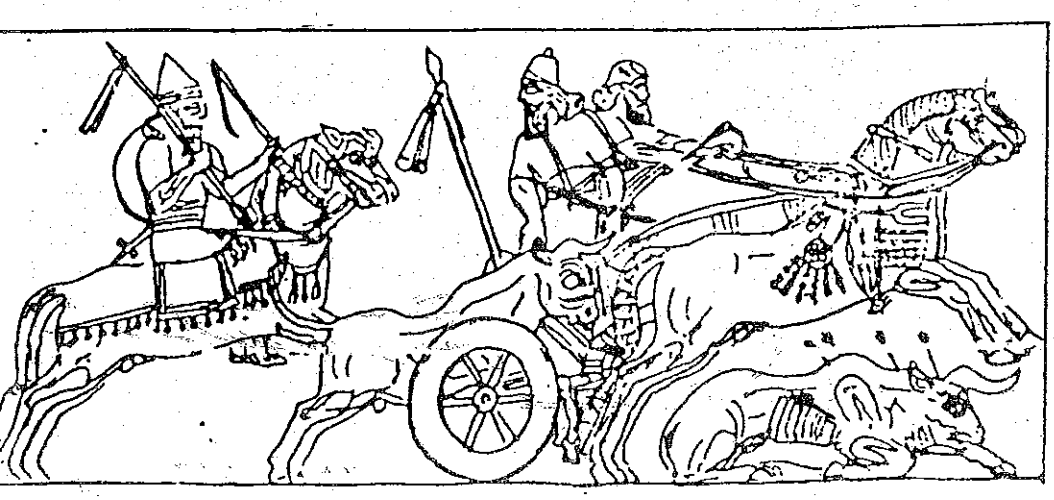

(ب)

مشهدين يمثلان عمليتي صيد الاسود والثيران الوحشية من عهد آشور ناصربال الثاني
عن : احمد : النحت البارز